١٤ اكتوبر - العدد ٦٤٠٨
١٠/٢/١٩٨٥م ص٤

همة هادئة في كتاب سير

علوي عبد الله طاهر

يختلف النقاد في مقادير اذواقهم ودرجات ثقافتهم ومحاصيل علمهم وعمق استيعابهم ، ورغم ذلك فان الخبرات الثقافية تؤثر في ملكات الناقد وقدرته على تذوق الاعمال الابداعية .

فالذوق السليم تشحذه الثقافة ويقويه المراس وتصقله التجارب ، ويتمثل في قدرة الناقد على اكتشاف روعة المؤلفات الابداعية ومزاياه الفنية . فالناقد هو الذي يستطيع ان يصل الى اعماق الاعمال الابداعية ويكشف عن مزاياها .. وهو الذي لايعميه بريق الالفاظ ، ولاتخدعه طنطنة الجمل . فان قراءاته المتعددة ومعايشته المستمرة للاثار المختلفة تفتح امامه افاقا اكثر بعدا بما يمكنه من ابراز اوجه الجمال او القبح في العمل الادبي .

والناقد الشاب احمد علي همداني يظهر علينا فجاة بكتاب هو باكورة انتاجه النقدي عنوانه (ادريس حنبله .. الشاعر والمناضل) صادر عن دار الهمداني للطباعة والنشر - بعدن.

ورغم ان الكتاب هو التجربة الاولى للكاتب في ميدان النقد الادبي ،الا اننا نستشف منه بروز بوادر لظهور ناقد متمكن يمتلك الكثير من خصائص الناقد الادبي الذي يستطيع استحضار تجارب الادباء وتحليلها وتفسيرها .. فهو الى جانب تمكنه من اللغة يمتلك الذوق الادبي الذي يجعله قادرا على اصدار الاحكام الصحيحة على الحقائق المتناهية في الصغر ، ولكنه في كتابه هذا لم يفعل ، ربما لانه لايريد ان يفرض وصاية على القارىء او لايرغب ان يكون قاضيا يصدر احكاما من اي نوع ، لان اصدار الاحكام قد يكون مخالفا للامزجة او متعارضا مع الاهواء ، او ربما لان الكاتب يرغب في ان يشرك القارىء معه في اصدار الاحكام .

ورغم ان المؤلف يعترف في مقدمة كتابه ان مؤلفه ليس دراسة نقدية ولاهي ترجمة ، وانما هو اشبه مايكون بحديث يثير قضايا معينة .. ولكنه مع ذلك يستوقف القارىء في اكثر من مكان ليجبره على التامل او ليشركه في النقاش او ليلفت نظره الى بعض القضايا التي اثارها في الكتاب ليقبلها او يرفضها .

ورغم اعجابنا بعمل الهمداني النقدي الا ان ذلك لايعفينا من مناقشته ولو في بعض المسائل التي اثارها وهي كثيرة ..

يقول الهمداني في معرض حديثه عن اللغة في شعر الحنبله .

(فالمواضيع الثورية الهادرة تستدعي الالفاظ الهادرة المجلجلة البعيدة عن الرخاوة واللين ، بل قد تحفع الشاعر الى استخدام اللغة الخطابية المنبرية المباشرة خاصة اذا كان الشاعر يستهدف بقصائده مسالة الايقاظ والتنوير ..) . ص ٥٢

ونحن نقول : ان الالفاظ الحسنة هي التي تكون على قدر المعنى المراد نقله ، فان كانت اقل منه وصل المعنى الى المخاطب ناقصا، وان كانت اكثر منه وصل الى المخاطب من غير طعم ولارائحة . فالالفاظ للمعاني بمنزلة الثوب للبدن، ومن الاثواب مايقي الحر والبرد ولكن العين تمجه لرداءة مادته ، او ضعف نسجه او قبح منظره ، وكذلك الالفاظ قد تفصل على قدر المعنى ولكن الذوق يمجها لتنافر حروفها او تجافي كلماتها او تخاذل نظمها او انحرافها عن هيئة وضعها . فمثلا في قول المتنبي :

(ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له مامن صداقته بد).

فالمتنبي استعاض عن مداراته بلفظة اخرى هي "صداقته" بما يوحي ان الصداقة هي في صفاء المودة التي لايضطر فيها الانسان الى "مداراة" عدوه وذلك هو مايعنيه بلفظة "صداقته" التي ادت المعنى المراد بالمداراة ، فاضفت على المعنى ثوبا قشيبا ربما لم تعطه لفظة "مداراته" ان كان الشاعر قد استعملها .

اما كون (المواضيع الثورية الهادرة تستدعي الالفاظ المجلجلة البعيدة عن الرخاوة واللين ..) فهذا ممكن اذا حلت الروعة بدل الرخاوة واللين في الالفاظ ، وفي الروعة جمال كالجبال الشاهقات والمواصف المزمجرات والليل والدهر .. الخ . وهي تقابل الرقة واللين في الجدول المنساب والزهرة المتفتحة .. الخ ..

اننا نقرا مثلا قول جرير مجيبا الفرزدق :

(انا الدهر يفني الموت والدهر خالد
فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله)

فالدهر والموت لفظتان مجلجلتان ولكنهما اعطتا للبيت روعة ، لانهما فصلتا على قدر المعنى المراد . وفي الشواهد التي اتى بها الزميل الهمداني كثير من الالفاظ المجلجلة ولكنها فقدت روعتها لانها لم تفصل على قدر المعنى .

اما كون المواضيع الثورية (قد تدفع الشاعر الى استخدام اللغة الخطابية المنبرية المباشرة خاصة اذا كان الشاعر يستهدف بقصائده مسالة الايقاظ والتنوير ..) فذلك مالايقبله الذوق النقدي ، لان ذلك يتعارض مع الجمال الذي هو اصل العمل الفني . والجمال تناسب كامل هادىء من دون افراط ولاتفريط ، ويتحقق الجمال في الشعر حين يطابق لفظه معناه دون زيادة ولانقصان ، وحين توافق الفكرة الشكل .

ولما كان الجمال يتصف بالتناسب التام بين الاجزاء كان لكل لفظ مكانه في القصيدة حتى ليتعذر على المرء استبدال لفظ بلفظ . وكلما كان العمل الفني جميلا تعذر التبديل فيه واستحال التغيير .

انظر مثلا الى هذا البيت للبحتري:

(يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس) .

فلو عمدنا الى البيت وحاولنا تبديل بعض الالفاظ فيه بشرط الابقاء على جماله والمحافظة على صوره ومعانيه لم نستطع . لنقل مثلا :

"تغتلي" فيهم "شكوكي" حتى
تتقصاهم يداي "بمس"

الا نلاحظ ان الانسجام بين الالفاظ قد تلاشى وصارت الالفاظ متنافرة، رغم حرصنا على بقاء المعنى ومحاولتنا المحافظة على قدر من الصورة الفنية .

ان الادب لايعتبر ادبا الا اذا ظل معبرا عن الجمال ، وهو لايكون كذلك الا اذا تميز بالفاظه عن الفاظ البحث العلمي والاخلاقي . ومهما كانت اغراض الشعر فان ذلك لايعفي الشاعر من الاتيان بالصور الجميلة ، ان القيمة الجمالية للعمل الادبي يجب ان تتغلب على ماسواها من القيم ، حتى ولو كان الادب ملتزما ، أو كان موضوعا في خدمة الجماعة، او في خدمة القضايا الانسانية والوطنية.

لقد كان الهمداني صادقا في كتابه حين قال :

(سيجد القارىء انني في هذا العمل اثير قضايا ليس الا .. ولست ناقدا ، لان الناقد يبرز الجيد والردىء ، ويتحدث عن جمال الذوق وفساده ، ولاشك في ان الذوق الفاسد هو اعتداء وعدوان على القارىء المثقف) . ص ٥٢

ورغم اعترافنا بامكانيات الهمداني النقدية الا ان لنا بعض التحفظات حول كثير من القضايا التي اثارها، ربما لايسمح المقام بذكرها .

ويبقى مع ذلك للهمداني مكانته المتميزة في ميدان النقد الادبي او في مجال اثارة القضايا ، الى جانب مكانته في الشعر . ويظل كتابه رائدا جديرا بالقراءة والمناقشة .